البعثة الكبرى

قال بوشكين في ملحمته «بولتافا» عن بطرس الأكبر إنه «فتح نافذة على أوربا»، وكان يقصد معركة بولتافا التي حددت سير حرب الشمال، ونتائجها النهائية بالنسبة لروسيا، أي وصولها إلى بحر البلطيق، وتوسيع صلاتها مع أوربا الغربية، كل ذلك صحيح، إلا أن بطرس حاول أن يفتح هذه «النافذة» من قبل، ويمكن حساب البداية من ألعاب مارس ونبتون وحملتي آزوف (فقد كان هدفها هي الأخرى «فتح النافذة» والوصول إلى البحار، إلى أوربا نفسها في آخر المطاف)، وكذلك «البعثة الكبرى» الشهيرة في ١٦٩٧-١٦٩٨، وكان التحضير لها بشكل أو بآخر قد بدأ من زمان في الأحاديث مع الأصدقاء الرُوس والأجانب في البداية، ويمكن الافتراض بأن الكلام عنها دار مرارًا في حي العجم، الذي هو عبارة عن أوربا الغربية مصغرة على ضفة ياوزا في ضواحي موسكو، وكان ليفورت من أكثر المتحمسين لفكرة رحلات القيصر إلى البلدان الأوربية الأكثر تقدمًا من أجل الاطلاع عليها شخصيًا لصالح روسيا، وكان بطرس يحب الخوض معه في هذا الموضوع، والمهم هنا ليس فقط نوايا القيصر الشخصية ـ مع أنها لعبت دورًا جوهريًا ـ المهم هو الحاجات الموضوعية لروسيا، وكان يدرك هذه الحقيقة الكثيرون من أسلاف بطرس، مثل والده الكسي ومعاونيه رتيشيف واوردين ناشوكين وماتفييف، وكذلك فيودور شقيق بطرس، وأخته صوفيا، والأمير فاسيلي غوليتسين، وغيره من ذوي السمعة والنفوذ.

كانت براعم الجديد قبل بطرس تنبجس من خلال طبقات العادات والمعتقدات الرُوسية القديمة، فقد كان في روسيا قبله أناس لا يعانون من التعصب القومي، فبين عامة الرُوس الذين يتهمون أحيانًا بشكل اعتباطي خاطئ بالنزعة الظلامية المحافظة كثير من المهتمين بالعادات والمنجزات الأجنبية.

ووفق النظام المتبع من زمان كان قد وضع في مديرية العلاقات الخارجية توجيه إلى السفراء، تضمن بمنتهى التفصيل القواعد التي يتعين على

الدبلوماسيين الروس أن يلتزموا بها أثناء المفاوضات مع الممثلين الأجانب، وتلزمهم تلك القواعد بأن يتذكروا متى وكيف يدخلون، وينحنون تحية، ويقفون، أو يجلسون ، ويخلعون القبعة أو يرتدونها، ويذكرون ألقابهم ومراتبهم، وألقاب ومراتب المسؤولين الأجانب، وقد جرت العامة على اتباع تلك القواعد دومًا ليس في روسيا وحدها، بل وفي البلدان الأخرى أيضًا، بما فيها بلدان أوربا الغربية، أما بطرس الذي حطم التقاليد والعادات المتبعة فقد وضع توجيهًا خاصًا به، وهو توجيه موجز وعملي يتضمن عدد العكسريين الضباط البحريين والبحارة الذين ينبغي استئجارهم من أوربا الغربية، وبعد ذلك تأتي قائمة الأسلحة، والمواد المستخدمة في صنع السلاح، وغير ذلك من المستلزمات إلى حد أعلام السُفن البحرية.

وفي ٦ كانون الأول (ديسمبر) أمر بطرس بأن يترأس البعثة الكبرى الجنرال الأميرال ليفورت بوصفه رجلاً مهذبًا مؤدبًا مطلعًا على العادات الأوربية، والجنرال المفوض غولوفين رئيس مديرية العلاقات الخارجية، وهو دبلوماسي محنك رهيف يتحلى بالحكمة وحسن المعاشرة، وأخيرًا عضو مجلس الدوما فوزنيتسين، وهو أيضًا من كبار المسؤولين في مديرية العلاقات الخارجية، ويتحلى بسعة الاطلاع والحكمة والتمرس الوظيفي، واضطلع الأول بدور الشخصية المرموقة الممثلة للبعثة، وكان الثاني هو مدير البعثة، والثالث معاونه الرئيسي، وكان غولوفين قد تشرف بإجراء المفاوضات مع الصين وتوقيع معاهدة نرتشينسك ١٦٨٩، وقام فوزنيتسين بعدة مهمات دبلوماسية في الخارج (الإمبراطورية العثمانية والبندقية والنمسا وبولونيا)، وكان هؤلاء الزعماء الثلاثة يتحلون بقابليات وطباع مختلفة فيكملون بعضهم بعضًا، وقال عنهم أحد الدبلوماسيين البولونيين: « إن هؤلاء السفراء أذكياء للغاية ومطلعون جيدًا على الأحوال في أوربا ويتميزون بمنتهى التهذيب».

وبمرسوم صدر في ٢٢ كانون الأول (ديسمبر) من العام نفسه ألغى بطرس لقب القيصر المستفيض الطويل وغيّر المفهوم تمامًا، والمُستخدم في الوثائق الدبلوماسية، فهو يتضمن عرضًا تفصيليًا للمعتقدات المسيحية

ومفاهيم الخالق وسلطته وجبروته، وبدلًا من ذلك اللقب صاروا يستخدمون صيغة موجزة: «الحاكم باسم اللّه».

وفي ٢ آذار (مارس) ١٦٩٧ غادرت موسكو المجموعة الأولى من البعثة، وبعد أسبوع غادرتها المجموعة الأساسية، وهي تضم الحاشية والخدم (الأطباء والقسس والطباخين والخدم والمهرجين الأقزام وغيرهم) ويتجاوز عددهم مئتين وخمسين شخصًا، منهم ٣٥ طالبًا، وبين طلبة البعثة بطرس ميخائيلوف العريف في فوج بريوبراجينسكي، وهو القيصر بطرس الأكبر نفسه، حيث قرر السفر مع البعثة خفية، وكما هو حال الطلبة الآخرين كان عليه أن يدرس شؤون بناء السُفن والعلوم البحرية في الغرب، وكان في الواقع يدير البعثة من البداية حتى النهاية ويوجه كل أعمالها.

ولأول مرة في التاريخ توجه قيصر روسيا إلى بلدان أجنبية، والهدف الرسمي من البعثة، كما قال الموظف في مديرية العلاقات الخارجية أوكراينتسيف: هو «تأكيد الصداقة القديمة والتمسك بالقضايا المشتركة للمسيحة كلها، وإضعاف أعداء الصليب المقدس والسُلطان العثماني وخان القرم، وجميع جحافل الكفرة»، أي تأكيد التحالف المناوئ للأستانة والقرم التابعة لها، وفي أواخر كانون الثاني (يناير) ١٦٩٦، تمكن كوزما نيفيمونوف المبعوث الروسي الذي أجرى مباحثات طويلة صعبة في فيينا والبندقية، من توقيع معاهدة التحالف الدفاعي والهجومي لمدة ثلاث سنوات بين روسيا والإمبراطورية الرومانية المقدسة والبندقية، ضد الباب العالي، وفي بولونيا توفي الملك بان سوبيسكي في صيف العام ذاته، وبدأ عهد «غياب الملك»، وما يلازمه عادة من صراع بين الجماعات والتكتلات، ومن فوضى واضطراب، ولذا لم يكن مقررًا زيارة بولونيا لتوقيع معاهدة مماثلة، ولم يكن بالإمكان طبعًا استمالة فرنسا، حليفة الإمبراطورية العثمانية آنذاك، إلى مقاومة الباب العالي، وأبدت بريطانيا وهولندة اهتمامًا بالتجارة مع الأستانة، زد على ذلك أن هذه البلدان الثلاثة كانت تستعد للحرب من أجل التركة الأسبانية، ذلك هو الموقف في ميدان السياسة الخارجية، وهو يوضح السبب الذي يجعل الأهداف الدبلوماسية

ثانوية في نشاط بعثة بطرس الكبرى، وقال شافيروف الدبلوماسي المعروف في «تأملاته» في أسباب حرب الشمال (وكان بطرس قد قرأ «تأملاته» وأضاف عليها)، قال عن تلك الأهداف بوضوح لا لبس فيه: الاطلاع على الحياة السياسية في أوربا، وبناء الأنظمة العسكرية والسياسية في روسيا على النمط الأوربي، وحث رعايا بطرس ـ بقدوته الشخصية ـ على زيارة البلدان الأجنبية لدراسة اللغات والأخلاق الطبية، ومختلف المهارات والصنائع والفن العسكري، ويبدو أن القيصر انطلق من القاعدة المعروفة: الرؤية مرة أفضل من السماع مئة مرة.

وانطلقت البعثة من موسكو إلى ريغا ممتدة عدة كيلو مترات، الزحافات تحمل احتياطي الأطعمة والأشربة، وكثيرًا من النقود والفراء الثَّمينة، وهذه الأخيرة هدايا «للمسؤولين»(كانت «طرق التعامل» هذه تستخدم على نطاق واسع في الدبلوماسية العالمية آنذاك)، وكان القيصر ينام في الزحافة وهي سائرة، أو يسبق القافلة الضخمة، كانت تحدوه الآمال والمشاريع المنشودة، وقد أخذ معه ختمًا من الشَّمع كتب عليه «أنا طالب أبحث عن معلمين»، ولم يكن القيصر يخشى القول صراحة بأنه شخصيًا والبلد الذي يتزعمه؛ قد تخلفا كثيرًا عن البلدان المتقدمة في أوربا، ويريدان أن يتعلما منها ويلحقا بها، ولأسباب تاريخية خطيرة (وبالدرجة الأولى النير المغولي الذي استمر حوالي قرنين ونصف) لم تتمكن روسيا من تحقيق منجزات كالتي حققتها أوربا الغربية في الميادين الاقتصادي والسياسي والثقافي، كان الإنتاج الرأسمالي يتطور بسرعة هناك، وقامت ثورتان برجوازيتان في هولندة وبريطانيا، أسفر عصر النهضة عن كوكبة من العمالقة والعباقرة في الأدب والفن، وكان يعمل العلماء الفيزياويون والفلاسفة العظام، وازدهر الفكر السياسي، أما في روسيا فلم يكن فيها شيء من هذا القبيل، مع أن النهضة الثَّقافية بدأت من أواخر القرن الرَّابع عشر، من عهد معركة كوليكوفو، واستمرت في القرن الخامس عشر (لوحات فيوفان غريك واندري روبليف، ولوحات ديونيسي وغيره بعد مئة عام، والسِّجلات الضخمة والقصص

والحكايات وسير القديسين، والمعابد والأديرة، والفكر السياسي الذي انتعش في القرنين السَّادس عشر، والسَّابع عشر وهلم جرا)، إلا أن ازدهارها كان سيأتي في القرن الثَّامن عشر، وخصوصًا في القرن التَّاسع عشر.

وفي بداية عهد بطرس وقبله بقليل ولدت في روسيا المانوفاتورات، وارتسمت بعض التطورات في الميدان الثقافي (تأسيس الأكاديمية السَّلافية اليونانية اللاتينية في عهد القيصر فيودور الكسييفيتش، والميل إلى الكتب واللغات الأجنبية في الأوساط العليا من المجتمع)، لكن تلك كانت هي الخطوات الخجولة الأولى، والمسافة حتى أوربا الغربية هائلة...

وفي أواخر آذار (مارس)، اجتازت قافلة البعثة حدود الدولة، ودخل الرُوس الممتلكات السويدية في البلطيق، والتي أخفق والد بطرس القيصر الكسي ميخائيلوفيتش في تثبيت أقدام الرُوس فيها، وبدأ تحرك الجليد وذوبانه في نهر دفينا الغربي، واضطر بطرس ومرافقوه إلى الانتظار ١١ يومًا ليدخلوا ريغا، واستقبل السويديون هناك البعثة ببرود وارتياب رغم إطلاق التحية المدفعية أثناء وصولها ومغادرتها، ومنعوا القيصر ومرافقيه حتى من تفقد القلعة، إذ هددهم الخفراء بالسَّلاح عندما اقتربوا من أسوارها، ودهش الرُوس لأن تجار ريغا المتزنين المحترمين حسب الظاهر أبدوا طمعًا كبيرًا في المال عندما واجه الرُوس صعوبات، وعرضوا زحافاتهم للبيع (فقد بدأ الربيع)، وطلبوا شراء عربات، فقد خدعوهم في هذه الصفقة، ورغب بطرس في الذهاب إلى المرفأ الذي تقف فيه سفن هولندية، لكن السويديين لم يسمحوا له بالذهاب إلى هناك، وكتب القيصر إلى موسكو صادقًا «عشنا هنا كالعبيد ولم نشبع إلا من النظر، والتُّجار هنا في أحسن ثياب وهم حقانيون جدًا حسب الظاهر، لكنهم عندما بعنا لهم زحافاتنا أخذوا يتشاتمون مع حوذيتنا، ويبيعون علينا بأغلى الأثمان».

ترك القيصر ريغا التي لم تستقبله بحسن ضيافة، وقد حزر أهلها بسره، وفي ٨ نيسان (أبريل) وصل إلى ميتاوا عاصمة دوقية كورلانديا، وهي دوقية تابعة إلى الدولة البولونية، واستقبلوه هنا بحفاوة وترحاب، فظل

في ضيافة الدُوق فريدريك كازيمير حتى ٢ آيار (مايو)، وتقابل الدوق المهذب المضياف مع بطرس أثناء المراسيم الرسمية وأثناء اللقاءات الشخصية، وبالمناسبة فلم تجر بينهما مباحثات سياسية جدية.

وفي ٢ آيار استقل بطرس السفينة «القديس غيورغي» إلى كينغسبيرغ، ورأى لأول مرة بحر البلطيق الذي شغل باله بعد عدة سنين، وبعد خمسة أيام وصل طلبة البعثة، وبضمنهم القيصر إلى كينيغسبيرغ، أما باقي أعضائها فقد ساروا برًا ولحقوا بالقيصر بعد عشرة أيام، وبعد يومين من وصول القيصر الرُوسي التقاه فريدريك الثَّالث، حاكم براندينبورغ وبروسيا الذي له مصلحة في التقارب مع روسيا، وأبدى منتهى الحفاوة به، فقد توالت الولائم المهيبة، والسهرات وحفلات التسلية.

لكن القيصر لم ينس أمرًا آخر، فقد استعان بكبير اخصائيي براندينبورغ في المدفعية فون شتيرنفيلد، فتعلم على يده ليزيد من معارفه في هذا الميدان، وادهشه بقابلياته وحصل منه على شهادة تفيد بأن القيصر العريف مدفعي ماهر.

وجرت مباحثات في الوقت ذاته، كان فريدريك الثالث، وهو من سلالة الهوهنسوليرن التي حكمت براندينبورغ من عام ١٤١٥، يسعى ـ شأن أسلافه ـ من وراء الدبلوماسية الماهرة وغير المبدئية إلى توسيع ممتلكاته، وتعزيز دولته التي انضمت إليها روسيا، بعد أن كانت تابعة لبولونيا، في أعقاب الحرب الليفونية (١٥٥٨ـ١٥٨٣) التي خسرتها روسيا، وكان حاكم براندينبورغ بحاجة إلى تأييد روسيا لسياسته التوسعية، ولذا حاول أن يترك انطباعًا حسنًا عند بطرس من خلال التحية المدفعية، والألعاب النارية، والولائم الضخمة، والمعانقة والود، وتقبل بطرس ومبعوثوه حسن الضيافة، وشكروا الحاكم على إرسال المهندسين والضباط، الذين كانت روسيا بأمس الحاجة إليهم في الحرب ضد العثمانيين أثناء حملتي آزوف، لكن المبعوثين رفضوا تقبيل يد الحاكم، أي رفضوا تقديم آيات الاحترام التي تقدم للملوك، وأكد الطرفان على «الصداقة القديمة» بين الدولتين وعلى هدفهما المشترك الكفاح ضد العثمانيين (وكان

فريدريك الثالث يستخدم هذا الكفاح لإضعاف جارته بولونيا).

وفي ٢٤ آيار (مايو) استلم المبعوثون الرُوس مسودة معاهدة التحالف، لم يعترضوا على أربع مواد منها، وهي المواد الخاصة بتأكيد الصداقة الأبدية، وتسليم العصاة، ووصول الرُوس للدراسة، وحق تجار براندينبورغ في السفر من خلال روسيا إلى بلدان الشرق لبيع الكهرمان، لكن المواد الثلاث المتبقية قوبلت بموقف مغاير تمامًا، فقد تناولت المادة الثَّانية من المسودة عقد تحالف دفاعي بين الدولتين، وتبادل المساعدة أثناء الاعتداء على كل منهما، وتناولت المادة الثَّالثة الضمانات الرُوسية لسلطة حاكم براندينبورغ في روسيا، فالموافقة على هاتين الصيغتين تدفع روسيا إلى الصدام مع بولونيا والسويد، ونصت المادة السَّابعة على استقبال مبعوثي فريدريك الثالث على مستوى مبعوثي الملوك (شأن مبعوثي النمسا وفرنسا والسويد وغيرها)، الأمر الذي يمكن أن يثير سخط فيينا عاصمة الإمبراطورية الرومانية المقدسة، التي تضم براندينبورغ وبروسيا، وكان هذا الحاكم ينافس في الواقع حليفه الأعلى الإمبراطور، وهذا أمر لا يمكن أن يحظى طبعًا بتأييد بطرس، ودبلوماسييه الذين ينطلقون من كون الإمبراطورية المذكورة هي حليفة روسيا في الحرب ضد الأستانة، ولذا رفض الرُوس هذه المواد الثلاث، ومع ذلك اتفق بطرس مع حاكم براندينبورغ أثناء المباحثات في ٩ حزيران (يونيو) على اتفاقية التحالف، والتعاون ضد الخصوم، ولكن بشكل غير تحريري، ووثق كلا الحاكمين هذا الاتفاق الشفوي بأن تصافحا وأقسما وتبادلا القبل، وانطلق القيصر من أن الضمانة الوحيدة للالتزام بالاتفاقيات هي ضمير الحاكمين، ولا أحد، سوى الخالق، يستطيع أن يحكم على تصرفاتهما، بما فيها توقيع المعاهدات والحنث بها أو فسخها، وقد أعرب بطرس الأكبر عن رأيه هذا إلى فريدريك الثالث.

وعندما أقدم بطرس على هذه الخطوة كان يحس بالريبة والتردد، ومن تلك الفترة ـ على ما يبدو ـ مهد التربة لتغيير وجهة السِّياسة الخارجية في روسيا، وتوجيه الاهتمام والجهود من الجنوب نحو الشمال الغربي، تكرم

بطرس على حاكم براندينبورغ بياقوتة ضخمة، وغادر في ٢٢ حزيران (يونيو) إلى ميناء بيلاو، حيث يتعين عليه أن يبحر إلى هولندة مشغول البال بتلك الأفكار والمخططات، لكنه تأخر في الرحيل، ففي الجارة بولونيا، وهي ثاني دولة في أوربا بعد روسيا من حيث المساحة، يجري منذ عام كامل الصراع على عرش الملك، وتفوقت في هذا الصراع مجموعة الإقطاعيين والماليين والموالين لفرنسا، فإن مرشحها الأمير دي كونتي كان يمكن أن يغدو ملكًا لبولونيا، ويعني ذلك أن بولونيا، الحليفة الحالية لروسيا في الرابطة المناهضة للأستانة، ستخرج من هذه الرابطة وتحذو حذو فرنسا حليفة الباب العالي، وقد آثار سير الأحداث هذا قلق روسيا، وكذلك النمسا، فقد أرسل الإمبراطور ليوبولد الأول، ومستشاره الدوق كينسكي إلى بولونيا مبعوثًا مع مبلغ كبير من النقود لشراء الذمم، ونصحا القيصر الروسي أن يفعل الشيء ذاته، ويستخدم الوسيلة المجربة: «فالبولونيون يحبون فراء السمور المسكوبية أكثر من النقود».

وتصرف بطرس بمزيد من الحزم، وبعث إلى حدود بولونيا قوات الأمير رومودانوفسكي (وكان دي كونتي قد اعتمد هو الآخر على قوات بلاده)، ودعم ترشيح حاكم سوسكونيا فريدريك أغسطس الأول ملكًا لبولونيا، كما بعث القيصر رسالة إلى مجلس السيم في بولونيا أكد فيها أن انتخاب دي كونتي يؤدي إلى الإخلال بالتزاماتها كحليف لروسيا والنمسا والبندقية: «ولذا فنحن إذ نكّن لدولتكم مشاعر الصداقة الدائمة لا نرغب في رؤية مثل هذا الملك الموالي لفرنسا وللأستانة في بولونيا، بل نتمنى أن تختاروا لأنفسكم ملكًا من أي قوم على ألا يكون من الجهة المعادية، بل يكون في صداقة طيبة وتحالف وثيق معنا، ومع الإمبراطور الروماني ضد خصوم الصليب المقدس المشتركين».

وتأزم الموقف في بولونيا، فقد التزم كبير الكرادلة جانب دي كونتي، وهدد أنصاره المقيم الروسي نيكيتين بالقتل، كما هدد قادتهم بمحاربة روسيا: «حالما يأتي الأمير سنتقدم لاحتلال سمولينسك»، إلا أن وصول رسالة بطرس الأولى والثانية، ونشرهما قد أثر على أمزجة الوجهاء

البولونيين، وتفوقت كتلتهم الموالية لروسيا، وانتخب أغسطس ملكًا، فوصل إلى بولونيا مع قوات سكسونية، واعتنق الكاثوليكية، ووعد الملك الجديد القيصر بطرس الذي هنأه بانتخابه بأن ينفذ التزامات التحالف إزاء روسيا وسائر أعضاء الحلف المناهض للأستانة.

وهدأ روع بطرس من تسوية الوضع في بولونيا، فشد الرحال إلى هولندة بحرًا، لكنه اضطر إلى قطع رحلته البحرية، إذ ظهر قراصنة استأجرهم الفرنسيون، فنزل القيصر في ألمانيا ليواصل رحلته برًا، سارت البعثة بسرعة، لكنها توقفت في قرية كوبنبروغه في ضواحي هانوفر، لأن صوفيا شارلوتا عقيلة حاكم براندينبورغ وبروسيا رغبت في رؤية قيصر موسكو، ومرافقيه «الهمج»، ولم تتمكن من رؤيتهم عندما كانوا في كينيغسبيرغ، لأنها كانت في برلين، ولم يعرج بطرس على عاصمة براندينبورغ، ولذا فإن هذه المرأة المتعلمة، تلميذة ليبنتز الشهير، والتي أقامت عدة سنوات في فرساي، قد أسرعت إلى قصر أمها صوفيا عقيلة حاكم هانوفر، وفي هذا القصر، غير بعيد عن كوبنبروغه، التقت المرآتان الرفيعتا المنزلة ببطرس أثناء العشاء، وكانوا قد صرفوا أكثر من ساعة لإقناعه بقبول هذا اللقاء، واستمرت المأدبة والأحاديث أكثر من أربع ساعات.

ودهشت المرآتان لعدم تكلف القيصر الروسي، وصراحته ولأحاديثه عن نفسه، وعن عاداته واهتماماته، وقد انهالتا عليه بوابل من الأسئلة والاستفسارات، وقالت الإبنة: «جلس وراء الطاولة بيني وبين أمي، وكنا نتجاذب معه أطراف الحديث، وكان يجيب بنفسه تارة، وبمساعدة اثنين من المترجمين تارة أخرى، وأؤكد لكم أنه كان يتكلم في صلب الموضوع في كل الأمور التي تطرق إليها الحديث، وطرحت عليه ماما بحيوية أسئلة كثيرة أجاب عليها بنفس الحيوية، وقد أدهشني أنه لم يتعب من الحديث لأن هذه الأحاديث، كما يقال، ليست من عادات أهل بلاده، أما تعابير وجهه فكنت أتصورها أسوأ مما رأيتها، وهو لا يستطيع أن يسيطر على بعضها، وواضح كذلك أنهم لم يعودوه على تناول الطعام بعناية

(فالقيصر لم يكن يجيد استخدام فوطة الطعام ملاحظة المؤلف)، لكن ما أعجبني فيه هو صراحته وعدم تكلفه، فقد تصرف وكأنه في بيته».

وكررت الأم ما قالته ابنتها، وأضافت: «القيصر طويل القامة جدًا، وجهه جميل للغاية، وقامته معتدلة تمامًا، ويتحلى بذهن ثاقب، وأحكامه ومحاججاته سريعة وصائبة، ولكن إلى جانب الخصال الممتازة التي منحته إياه الطبيعة، حبذا لو كان ذوقه أقل خشونة... وقد شعرنا بارتياح كبير أثناء التحدث معه، فهو إنسان غير عادي إطلاقًا، ومن المستحيل وصفه بل وحتى أخذ فكرة عنه غيابيًا.. وأخبرنا بأنه يعمل شخصيًا في بناء السُفن، وعرض علينا يديه الجاسئتين بسبب العمل، وجعلنا نلمسهما لنتأكد من ذلك»، وكتبت في رسالة أخرى: «هذا القيصر رجل طيب للغاية وشرير جدًا في الوقت ذاته، وطباعه نسخة طبق الأصل من طباع بلاده، لو كان قد حصل على تربية أفضل لكان إنسانًا رائعًا لأنه يتحلى بكثير من الخصال وبذكاء طبيعي لا نهاية له».

لقد ترك بطرس في الأوربيين المتعلمين انطباعًا مزدوجًا، لكنه على العموم انطباع جيد، وفي الطريق عبر ألمانيا كان يتراسل مع موسكو، فقد كتب، مثلًا، في رسائله إلى أ. فينيوس الذي يترأس مديرية سيبيريا؛ بالإضافة إلى مديريات أخرى عن استئجار اخصائيي التعدين من أوربا، ففي الأورال اكتشفوا قبل رحيل القيصر فلزات حديد جيدة، وكان القيصر مشغول البال ببناء الأفران، وصهر الفلزات، وصب المدافع وغير ذلك، وكتب بطرس إلى فينيوس يقول: «حالما نصل إلى هولندة نتخذ الإجراءات لاستخدام الاخصائيين الذين نحن بحاجة إليهم».

كان بطرس يريد الوصول إلى هولندة بأسرع ما يمكن، فامتنع عن لقاء آخر مع عقيلة وابنه حاكم هانوفر، ولم يخجل من الاعتراف بأنه لا يحب الموسيقى والصيد ويفضل بناء السُفن، وهناك، في هولندة، كانت تنتظره الأعمال في أحواض بناء السُفن واللقاءات مع الأخصائيين الذين يعرفهم منذ أن كانوا في موسكو، زد على ذلك أن اللغة الوحيدة التي يعرفها بطرس على أية حال هي الهولندية.

هولندة بلد ذو صناعة متطورة، وهي دولة بحرية واستعمارية وتجارية عظيمة، وفيها صناعات مانوفاتورية، وأسطول تجاري هائل (١٦ ألف سفنية أربعة أخماس الأسطول التجاري العالمي) وليس فيها من السُكان سوى مليونين، ولكنها كانت أغنى بلد في أوربا، ففي ذلك الزمان ظهرت فيها البنوك البرجوازية الطراز، وبورصات العملة وشركات التأمين، وكان غليوم أو ولهلهم الثالث الأوراني حاكم هولندة في الوقت ذاته ملكًا لبريطانيا (من عام ١٦٨٨)، وكان رئيسًا لائتلافي الدول الأوربية (رابطة أوغسبورغ وحلف فينا الكبير) المناهضين لتوسع فرنسا ولأطماع «ملك الشمس» لويس الرابع عشر، وواجهت هولندة الصغيرة بنجاح أقوى جيش في أوربا هو الجيش الفرنسي بقيادة تورين وكوندي.

في مدينة ريسويك الهولندية، قريبًا من لاهاي، اجتمع دبلوماسيو هولندة وحلفاؤها في مفاوضات الصُلحمع ممثلي فرنسا، وكان بطرس مع ١٨ طالبًا من طلبة البعثة يقترب من هولندة في تلك الفترة عن طريق الراين وقنواته، وفي ٧ آب (أغسطس) ١٦٩٧ وصلوا إلى امستردام، ولم تكن البعثة قد وصلت بعد، فترك بطرس ١٢ شخصًا في المدينة، وأسرع مع باقي الطلبة إلى البحر، وفي اليوم التالي وصل إلى ساردام، وهي بلدة صغيرة على ساحل البحر، وهنا التقى بحداد يعرفه ممن عملوا في روسيا، ودهش الحداد عندما رأى القيصر الروسي، وحذره بطرس بأنه وصل خفية، ونزل مع رفاقه في منزل الحداد الصغير، وفي الحال ارتدى القيصر الثياب المحلية، واشتغل أجيرًا في حوض بناء السُفن، اقتنى الأدوات اللازمة، وحمل فأسه، وبدأ يتعلم مهارات بناء السُفن، وكما هو شأن سائر الصنّاع ارتدى قمصلة حمراء من البازة، وسروالًا قطنيًا، وراح يعمل بالفأس بمهارة، وكان يقود اليخت بنفس المهارة، ويقول شاهد عيان هولندي: «كان في كل مكان يُبدي حب استطلاع غير معتاد، وغالبًا ما يسأل عن أمور تفوق مستوى معارف الذين يسأل منهم، كان حاد الملاحظة يتمتع بموهبة نادرة للفهم، كما يتمتع بنفس القدر بذاكرة فائقة، كان الكثيرون يدهشون لمهاراته في العمل، فهو يتفوق أحيانًا حتى على أكثر العاملين حنكة،

ويقال إنه زار معملًا للورق وتفقد كل ما يثير اهتمامه ثم أخذ قالبًا من يد أحد الاسطوات، كان هذا الأخير يغترف به معجون الورق، وصب ورقة رائعة لا يستطيع أحد أن يصب أفضل منها».

إلا أن المشاكل بدأت، فسرعان ما عرف الجميع أن القيصر الرُوسي يعمل في حوض بناء السُفن، وصارت حشود الفضوليين تضايقه، وجاء للتفرج عليه ليس أهالي ساردام فقط، بل وكثير من الأشخاص الذين وصلوا خصيصًا من مدن أخرى، ثم إن بطرس فهم رأسًا أن ساردام ليست المركز الرئيسي لبناء السُفن كما أكد له الهولنديون في موسكو، فهنا تبنى فقط سفن للتجارة وقوارب صغيرة، أما السُفن الكبيرة فتبنى في امستردام، ولذا رغب في الرحيل إليها.

وفي تلك الأثناء وصلت البعثة الكبرى إلى هولندة، وفي ١٦ آب (أغسطس) استقبلت رسميًا في امستردام، وكان بين الحاشية بطرس الذي وصل من ساردام في قفطان وقميص أحمر وقبعة لبادية، واستقبلت البعثة بتحية مدفعية، ووقفت القوات وحشود المتفرجين على طول طريقها، وخصص لها أفضل فندق في المدينة.

وفي اليوم ذاته تعرف بطرس على نيكولاي فيتزين محافظ أمستردام، وهو أحد مدراء شركة الهند الشرقية، وكان قد زار روسيا سابقًا، وتعلم اللغة الرُوسية، وله مؤلفات عن روسيا، ودراسات في بناء السُفن، وغدا هذا الإدراي والعالم الكبير بمثابة الوصي على البعثة الكبرى، فقد هيأ لبطرس وسائر الطلبة عملًا في حوض بناء السُفن التَّابع لشركة الهند الشرقية، وقرر مدراء الشركة وضع أساس بناء سفينة جديدة «لتتمكن الشخصية البارزة التي وصلت إلى هنا خفية» من دراسة جميع مراحل بنائها وتجهيزها، وعرف بطرس بذلك في المأدبة التي أقيمت تكريمًا للبعثة، حل الظلام، لكن الليل لم يمنع القيصر من السفر فورًا إلى ساردام ليجلب حاجياته وأدواته، وينقلها إلى حوض بناء السُفن في امستردام، ولم يفلح الآخرون في إقناعه بالعدول عن ذلك، ودعت الحاجة ليلًا إلى طلب المفاتيح من خفر الميناء وانزال الجسر المفتوح، وإيقاظ أهل المنزل الذي كان يقيم

فيه القيصر، وفي ساعة مبكرة من صباح ٢٠ آب (أغسطس) عاد ساردام في قارب شراعي صغير وتوجه في الحال إلى حوض الشركة ليباشر عمله، وأقام هنا في منزل أسطة الحبال مع عشرة من الطلبة الرُوس.

وفي اليوم التالي، يوم الأحد، أقامت السُلطات استعراضًا حربيًا بحريًا تكريمًا للبعثة، وشاركت فيه ٤٠ سفينة حربية، وانساق بطرس وراء الأحداث أثناء القتال حتى أخذ على عاتقه قيادة يخت حربي.

ووجه جل اهتمامه لواجبات نجار السُفن، وفي ٩ أيلول (سبتمبر) أرسى القيصر والطلبة أساس بناء فرقاطة ليبنوها بأنفسهم بالكامل تحت إشراف الأسطى الهولندي بول، كان ذلك العمل صعبًا جدًا، لكن بطرس لم يلتفت إلى الصعوبات، فهو متواضع في اللباس والطعام ولا يهتم بوسائل الراحة، ويمكن قول الشيء ذاته عن مينشيكوف وغولوفكين والآخرين، إلا أن باقي الطلبة لم يكونوا كهؤلاء، فالبعض منهم لم يتحملوا توتر العمل وسرعته، وحاولوا أن يعودوا إلى الوطن، ولاموا القيصر لأنه يعمل بنفسه في حوض بناء السُفن، وبلغ بطرس هذا الخبر، فأمر دون تردد بتقييدهم بالسلاسل لإعدامهم فيما بعد بقطع رقابهم، إلا أن محافظ امستردام تدخل، وأوضح للقيصر الرُوسي أن إعدام المرء في هذا البلد بدون محاكمة غير جائز، ولذا رأف بطرس بالطلبة العاصين، وبدلًا من الإعدام أمر بنفيهم إلى المستعمرات الهولندية.

ظل بطرس يعمل في حوض بناء السُفن ويوجه أعمال البعثة الكبرى في الوقت ذاته، ويتابع نشاط مؤتمر ريسويك والأحداث في بولونيا، ويطالب معاونيه بانباء تلك الأحداث، ويقول المقيم النمساوي بلير: «إن القيصر يوجه كل شيء على هواه»، وفي الأول من أيلول (سبتمبر) التقى مع ولهلم، كان هذا السِياسي الذَكي القوي البعيد النظر، قد اقترح منذ دخول البعثة الكبرى إلى هولندة تنظيم لقاء مع قيصر روسيا، دون أن يعلم بأن القيصر موجود في هولندة يعمل بالفأس في حوض بناء السُفن، تباحثا وجهًا لوجه دون شهود، ولا أحد يعلم بمضمون الحديث الذي دار بينهما، وأهم ما في الأمر بأن كلا الحاكمين تعرفا على بعضهما البعض

شخصيا، فقد رأى بطرس أخيرًا ذلك الحاكم الذي يحترمه أشد الاحترام، ويعتبره بطلًا استنادًا إلى أحاديث الأجانب في حي العجم في موسكو، أما الحاكم الهولندي المحنك والبارد الأعصاب فقد تطلع باهتمام، في أغلب الظن، إلى الحاكم الشَّاب المتحمس، قيصر موسكو «البربرية».

وكان بطرس ودبلوماسيوه يتلقون التقارير من نيكيتين في بولونيا، حيث كان الصراع لا يزال مستمرًا بين أنصار أغسطس ودي كونتي، ويتراسلون مع ملكي الدانمرك والسويد اللذين أيدا ترشيح أغسطس ملكًا على بولونيا، وفي هولندة تصدر جرائد منتظمة يشتريها الرُوس ويقرأونها بحذافيرها.

واقترن العمل في حوض بناء السُفن والمراسلة الدبلوماسية بزيارة المتاحف، والمسرح، وحديقة النبات، ومختبر التشريح والمانوفاتورات وهلمجرا، وتعاقد الرُوس مع اخصائيين في مختلف الميادين وبعثوهم إلى روسيا.

وفي ١٧ أيلول (سبتمبر) جرى الاحتفال بدخول البعثة الكبرى إلى لاهاي، حيث تتواجد هيئات السُلطة العليا، بما فيها الهيئات العامة للجمهورية، ونوابها المنتخبون، ولم يكن المبعوثون الرُوس يفهمون تمامًا خصائص النظام الجمهوري، ووظائف النواب، وهذا واضح على الأقل من كون المبعوثين الكبار قد طالبوا ـ وفقًا للأصول الدبلوماسية الموسكوبية ـ بأن يستقبلهم النُواب أثناء المقابلة الرسمية، وقوفًا عند أبواب العربات، وأوضح لهم فيتزين أن النواب ليسوا خدما للملك... (فهم مستقلون وهم أصحاب السُلطة العليا).

وفي ٢٥ أيلول (سبتمبر) جرت المقابلة الرسمية، وألقى المبعوثين الكبار خطبًا وسلموا الهدايا ـ فراء السمور الثمينة، ورد رئيس الهيئات العامة بكلمة جوابية، ووقف بطرس بين حاشية البعثة يراقب المراسيم، وفي الأيام التالية، بعد مراسيم افتتاح الممثلية أو السفارة، زاره رسميًا سفراء بريطانيا، وبراندينبورغ، والدانمرك ،والسويد، وبلدان أخرى، ولم يحضر

السـفير الفرنسي- وهذا مفهوم- لأن السَـفارة الرُوسية تجاهلته كممثل لبلد معاد لروسيا وصديق للعثمانيين.

وكانت نهاية أيلول (سـبتمبر) ومنتصف تشرين الأول (أكتوبر) فترة اللقـاءات والمباحثـات بين المبعوثـين الرُوسـن واللجنة الخاصة الـتي عينتها الهيئـات العامـة، وتابـع بطـرس باهتمـام سـير الأعمـال وحـرر التوجيهات اللازمة، وطرح الجانب الرُوسـي مسألة المساعدة الهولندية لروسيا في حربها ضـد الأسـتانة، بالعتاد وذخيرة السُـفن، وبالأموال لبناء الأسـطول، وعرض علـى الهولنديـين حق المتاجـرة مع بـلاد فارس، وبلـدان الشـرق الأخرى من خلال رُوسـيا، لكن المندوبين الهولنديين رفضوا ذلك كله، فليس لهولندة مصلحة كبيرة في المتاجرة مع روسـيا، فالتجارة معها تشـكل أقل من ١٪ مـن التداول التجاري الخارجي العام للبلاد، وبعد توقيع الصُلحمع فرنسـا لم تعد هولندة راغبة ف تأزيم العلاقات معها بتقديم المساعدة إلى بلد يحارب العثمانيـين، زد علـى ذلك أن السـلطات المحليـة مهتمة بحالـة التجارة في البحر الأبيض المتوسط، ويمكن للعثمانيين أن يعيقوا تلك التجارة.

بهـذه الصورة دفعت روسـيا ثمن تخلفهـا، وعدم وجود أسـطول ،وتجارة متطـورة على نطاق واسـع، أما أقوال المبعوثين الرُوس بشـأن ضرورة توحيد جهـود الدول المسـيحية في مكافحة الباب العالي الإسـلامي، فقد بدت في أنظـار الساسـة المحنكـين النفعيين في أوربـا الغربية سـاذجة تمامًا، فإن اختـلاف المعتقـدات الدينية لم يمنع نشـوء مختلف الائتلافـات والاتحادات والكيانات الكاثوليكية، والذي دخلته الدَول البروتستانتية (بريطانيا وهولندة والسـويد)، بل وكذلك الدَول الكاثوليكية (النمسا وأسبانيا وبافاريا) وتحالف فرنسا المسيحية مع تركيا الإسلامية.

وبعد المقابلة التوديعية وتقديم الهدايا من الحلى الذهبية (وكان ثمنها يطابـق تمامًا قيمـة الهدايا التي قدمهـا الجانب الرُوسـي في المقابلة الأولى)، انتهت المهمة الرسمية للبعثة الكبرى في هولندة، وانفقت الهيئات المسؤولة الهولنديـة علـى البعثة مبلغًا كبيرًا هـو ١٠٠ ألف غولديـن، أي أكثر مما أنفقته على أية بعثة أخرى، ودعت الحاجة إلى توضيح سـبب هذا السـخاء

للمندوبين الأجانب: ففي البعثة الروسية ثلاثة نواب عن القيصر، وفي الحاشية ربما كان القيصر نفسه موجودًا...

ظل المبعوثون الروس في امستردام يمارسون أعمالهم ويمرحون، وكأنما هم في موسكو، ومع أن الهيئات المسؤولة لم تعد تنفق عليهم، فإن المباني التي شغلوها ظلت تحت تصرفهم، وكانوا أحيانًا يتصرفون بمنتهى الحرية، لكنهم لم يقترفوا خطايا خطيرة، فسارت الأمور على ما يرام، وفي أواخر تشرين الأول (أكتوبر) قابل بطرس الأكبر ولهلم من جديد، ففي نهاية مكوث بطرس في هولندة دعى لحضور «تسلية» فريدة هي إعدام مجرمين، وأعدت مدرجات خاصة بهذه المناسبة.

وفي أثناء ذلك لم يعد العمل في حوض بناء السُفن التَّابع لشركة الهند الشرقية يرضى بطرس، فبعد أن أتقن المهارات العملية في هذا المجال، صار يحلم بالتضلع في نظرية بناء السُفن، إلا أن الأسطوات الهولنديين الذين يطلب العون منهم لا يستطيعون أن يعينوه بهذا الخصوص، وتشكى القيصر من ذلك ذات مرة في منزل التَّاجر يان تسينغ وكان في ضيافته، وجرى بين صاحب البيت وضيفه حديث كالآتي:

ـ ما الذي يحزنك؟

ـ يؤسفني جدًا أني قطعت طريقًا طويلاً ولم أحصل على النتيجة المنشودة.

وحضر الحديث رجل إنجليزي عقَّب قائلًا:

ـ في بريطانيا هذه الأمور متطورة جدًا، ويمكن تعلمها بأقصر وقت.

فانتعش بطرس واستعاد حماسه، وتكلم مع ولهلم الثالث بهذا الخصوص، فدعاه هذه الأخير إلى بريطانيا.

وفي ٢٣ تشرين الثَّاني (نوفمبر)، وصلت من لندن على عنوان ليفورت رسالة من الأميرال اللورد كارمارتن، أفاد فيها أن ملك بريطانيا أهدى لقيصر روسيا يخت «ترانسبورت رويال» الذي فرغوا من بنائه توا حسب تصميم كارمارتن نفسه، وقدم اللورد كابتنا لقيادة اليخت، وارتاح

بطرس أشد الارتياح للهدية الثمينة، وأراد ان يراها بأسرع وقت، وبعث الميجر آ دام فيدي إلى لندن ليبلغ الملك بانتصار روسيا على الأتراك في معركة تاوان على الدنيبر، ولمح الملك إلى أن موقفه من بطرس لا يزال طيبًا رغم فشل المباحثات في هولندة.

وفي أواخر العام المذكور بذل أفراد البعثة الكبرى قصارى الجهود للتعاقد مع أخصائيي الأسطول، وصُنع السِلاح والتطبيب وإلخ؛ لإرسالهم للخدمة في روسيا، وتمكنوا من استئجار أكثر من ٨٠٠ شخص من الهولنديين والإنجليز والألمان، وأهالي البندقية واليونانيين من ضباط وبحارة ومهندسين وأطباء وغيرهم، وبعثوا إلى روسيا عشرات الآلاف من البنادق الجديدة، وكميات من المواد العسكرية والأجهزة البحرية، وظل بطرس ومبعوثوه مهتمين بالوضع في بولونيا، فلا يزال قائمًا هناك الصراع بين أغسطس ودي كونتي، وكان هذا الأخير يعتمد على قوات من ١١ ألفًا، وطلب السفير البولوني بوزي- وهو سكسوني الأصل- من بطرس أن يقيم استعراضًا عسكريًا، وألح في الطلب حتى أشار بطرس في آخر المطاف على رومودانوفسكي بأن ينجد ملك بولونيا، إذا طلب النجدة في الصراع ضد دي كونتي، وضد المستشار اللتواني سابيغا، وعصبة الوجهاء البولونيين الموالين لفرنسا، وطلب بطرس من الدانمرك ألا تسمح للأسطول الفرنسي بالمرور إلى البلطيق لنجدة دي كونتي.

وفي ٢٦ كانون الأول (ديسمبر) عاد فيدي ترافقه- بأمر من الملك- ثلاث سفن و يختان من بريطانيا لإيصال بطرس وطلبته إلى لندن، وبدأت التحضيرات العاجلة للسفر، خياطة بزة جديدة، وإقامة مأدبة توديعية عند ليفورت، وفي ٩ كانون الثَّاني (يناير) ١٦٩٨ توجه بطرس مع الطلبة إلى الجزر البريطانية، بينما ظلت البعثة الكبرى في امستردام.

استمرت الرحلة ثلاثة أيام في بحر مضطرب بارد، وفي صباح ١١ كانون الثاني (يناير) وصل بطرس إلى لندن، كان معه ٢٧ شخصًا (من طلبة البعثة والخدم)، وفي الطريق صرف القيصر أكثر وقته على متن السفينة، وهو في بزة ملاّح هولندي، وانهال على الأميرال ميتشيل الذي رافقه بوابل

من الأسئلة بخصوص الملاحة وتصميم السُفن، ذات مرة صعد إلى الصارية ودعا الأميرال ليتبعه، لكن هذا الأخير اعتذر بأدب متحججًا ببدانته.

وتحدث ولهلم الثالث بارتياح مع رجال بلاطه والدبلوماسيين الأجانب عن القيصر الرُوسي الغريب الأطوار، ويقول المقيم النمساوي هوفمان: «بالإضافة إلى هذه التفاصيل عن مكوث بطرس هنا قال الملك إن هذا القيصر لا يتسلى إلا بالسُفن والملاحة البحرية، وهو لا يهتم مطلقا بجمال الطبيعة، وبالمباني الرائعة، والحدائق المدهشة، وهو لا يتكلم ولا يفهم بالهولندية إلا ما يتعلق بالملاحة البحرية».

ووصل القيصر الرُوسي إلى مدينة من أكبر مدن العالم، يبلغ سكانها ٧٠٠ ألف نسمة، وهي ميناء عالمي زارته في عام ١٦٩٨ ـ أي في سنة وجود بطرس هناك ـ ١٣٤٤ سفينة، كانت بريطانيا بلدًا متقدمًا يسير بسرعة على طريق التطور البرجوازي، وفيها انتاج صناعي وتجارة ينموان بشكل عاصف، وقد تركزت فيها أعظم القيم الثقافية والمؤسسات العلمية، التي يعمل فيها علماء طبقت شهرتهم الآفاق، ويمكن أن نتصور مشاعر التفوق والسخرية التي أحس بها الملك ولهلم الثالث أثناء لقاءاته بحاكم روسيا الشاب، فهذا الأخير كان يتكلم بحماس ـ على الأغلب ـ عن مخططاته لبناء أسطول، والوصول إلى البحار، وكانت أوربا الغربية قد استقبلت هذه التصريحات بارتياب واستهانة وسخرية، وكان بطرس يحاول بشق الأنفس أن يخفي انفعاله وحياءه في الحديث مع الأجانب، ولم يرغمهم على تغيير موقفهم من روسيا وبطرس؛ إلا الانتصارات التي أحرزها الرُوس برًا وبحرًا بعد عشرة أو خمسة عشر عاما.

كان ملك بريطانيا يعامل بطرس، مثلما في هولندة، بمنتهى الاهتمام واللياقة، وكلف غوتفريد كيلر، تلميذ رمبرانت بأن يرسم صورة نصفية للقيصر، فجلس هذا الأخير في الهيئة المطلوبة، ورسم الرسام صورة رائعة للحاكم الشَاب، بوجهٍ يتجلى بالرجولة والإلهام والأنفة، والاعتداد بالنفس، والثقة بالمستقبل، وقال أحد معاصريه الذي رآه في تلك السنة: «كان القيصر بطرس بن الكسي فارغ القامة أقرب إلى النحافة، شعره

قصير كثيف كستنائي غامق، عيناه واستعان، سوداوان بأهداب طويلة، وفمه معتدل، إلا أن شفته السفلى فيها عيب طفيف، تعابير وجهه رائعة، تجعل الرائي يحترمه من أول نظرة، وبسبب طول قامته خيل إلى أن ساقيه رقيقتان، ورأسه غالبا ما يهتز متشنجًا نحو اليمين».

كان القيصر يصرف القسم الأكبر من الوقت الذي قضاه في بريطانيا (أربعة أشهر) في أحواض بناء السُفن وهو يدرس النظرية، ففي ديبتفورد بضواحي لندن تلقى منهجًا نظريًا في بناء السُفن، بإشراف مفتش الأسطول الملوكي السير انطوني دين، كما ساعده اللورد كارمارتن الذي ربطته به علاقة صداقة، فهذا اللورد رجل مرح واسع الاطلاع، فشعر القيصر بالارتياح من مخالطته، وتلبية لدعوة الملك وصل بطرس إلى بورتسموث القاعدة الرئيسية للأسطول البريطاني، وراقب مناورات السُفن الحربية التي هي أضخم السُفن في العالم آنذاك، وقد أقيمت المناورات له خصيصًا، ولذا فلم يخف إعجابه ودهشته:

ـ حياة الأميرال في بريطانيا أكثر مرحًا بكثير من حياة القيصر في روسيا.

لكن اهتمام بطرس لم يقتصر على شؤون الأسطول، فقد اطلع على أمور كثيرة أخرى، وقد تقابل بطرس مرارًا مع الأسقف غلبرت بارنيت، وتحدث معه عن شؤون الكنيسة، وكان هذا المسؤول في الكنيسة الإنجليكانية الذي بعثه أسقف كنتربري نفسه للتحدث مع بطرس، يتصور على ما يبدو في فترة ما إن بالإمكان استمالة القيصر الرُوسي وبلاده إلى اعتناق البروتستانتية بشكلها الإنجليكاني، فقد وصلت إلى أوربا الغربية أخبار استهانة بطرس بالكنيسة الأرثوذكسية في روسيا، وبعد عدة محادثات طويلة نسبيًا مع القيصر أخذ عنه الأسقف انطابعًا جيدًا: فالقيصر «يتحلى بمستوى من المعارف لم أكن أتوقعه لديه... فهو أما أن يهلك أو أن يغدو رجلًا عظيمًا». لكن بارنيت سرعان ما فهم بأن آماله في استمالة بطرس والدولة الموسكوبية إلى جانبه لا مبرر لها، فقد اهتم القيصر بنقطتين في الكنيسة الإنجليكانية ضروريتين له في روسيا:

العلاقة بينهما وبين سلطة الملك الدنيوية وأوضاعها المادية، وكان لابد وأن يعجب بما عرفه بهذا الخصوص: فالكنيسة الإنجليكانية خاضعة بالكامل للدولة، وليست لديها ممتلكات عقارية، أما في روسيا فالكنيسة بشخص رجالها (البطاركة وغيرهم) غالبًا ما تعارض السُلطة الدنيوية، ويكفي أن نتذكر هنا البطريرك نيكون الذي كافحه القيصر الكسي والد بطرس، أو البطريرك يواكيم الذي عارض بشدة الاختلاط بالأجانب، والأهم أن الكنيسة الرُوسية تمتلك عقارات كبيرة مع الكثير من الفلاحين الأقنان، مما يشكل أساسًا اقتصاديًا لادعاءاتها وطموحاتها السياسة، ولم يخف بطرس موقفه السلبي من الرهبان الرُوس الطفيليين.

وعندما فهم بارنيت أن الحاكم الرُوسي لا يميل إطلاقا إلى اعتناق البروتستانتية غير موقفة منه بصورة جوهرية، فقد اشار إلى خشونته وقساوته، وغير ذلك من صفات «الموسكوبي البربري» والحال فإن بطرس، بالإضافة إلى الاطلاع على الكنيسة الإنجليكانية زار باهتمام واضح- في ديبتفورد نفسها - مصليات الكواكر، وفي ٣ نيسان (أبريل) ١٦٩٨، تقابل وتحدث مع وليم بان، الشخصية المعروفة في حركة الكواكر، ومؤسس مستوطناتهم في أميركا الشمالية، (وتدل على ذلك تسمية إحدى ولايات الشَمال الشرقي في أميركا التي ظلت باقية حتى الآن)، وأعجب القيصر ببعض جوانب تعاليم الكواكر، الدعوة للوئام، والأخوة الشَاملة، وطهارة الإنسان الأخلاقية، ورفض الطقوس الكنسية، وقال بطرس بعد مرور ١٦ عاما في أعقاب زيارة لمصلى الكواكر في هولشتين (شمال ألمانيا): «من يعش وفقًا لهذه التعاليم يذق طعم السعادة».

واهتم بطرس بالنِظام البرلماني البريطاني، ففي ٢ نيسان (أبريل) زار مبنى البرلمان، لكنه رفض حضور جلسته، فقد استمع من كوة السقف إلى المناقشات في الجلسة المشتركة لمجلس اللوردات ومجلس العموم، ولم يبق ذلك سرًا، فقد قال أحد الدبلوماسيين: «إن ذلك قدم الحجة لشخص ما كي يقول إنه رأى أندر حالة في الدنيا، رأى ملكا على العرش وإمبراطورا على السطح».

ويبدو أن القيصر اهتم بكون أعضاء البرلمان يعربون عن آرائهم بحرية بحضور الملك: «من المفرح أن تسمع الرَعايا يقولون الحقيقة لملكهم صراحة، وهذا ما يتعين أن نتعلمه من الإنجليز»، وكان القيصر قد طبق هذه القاعدة في «شلته»، حيث كان أفرادها يعربون للقيصر بجرأة أحيانا عما يفكرون فيه، فإن رومودانوفسكي - مثلًا - لامه في رسالة بعثها إلى لندن على التشويش في قضية ما، وفيما بعد، عندما شكّل القيصر مجلس السينات (الشيوخ)، والهيئات التي حلت محل المديريات، طبق في عملها مبادئ المناقشة العامة الصريحة لجميع المسائل والشؤون، واتخاذ القرارات بشأنها، إلا أن ذلك كله كان بعيدًا جدًا عن النِظام البرلماني، والديمقراطية بالمعنى الأوربي الغربي للكلمة، فقد ظل بطرس طوال حياته حاكمًا مطلقًا مستبدًا، قياسًا لا يعرف الرحمة أحيانًا، ويقول كلوتشيفسكي: «كان بطرس طيبًا بالفطرة كإنسان، لكنه قاس كقيصر».

وأمضى الضيف الرُوسي الكبير وقتًا طويلًا في المعامل، وزار الجمعية الملوكية البريطانية وجامعة أوكسفورد، وزار مرارًا مرصد غرينويتش، ودار سك النقود، وربما تكلم مع إسحق نيوتن الشهير الذي كان آنذاك يدير دار سك النقود، وأسفر اللقاء مع العالم الرياضي فيرغارسن عن اتفاق حول مجيئه إلى روسيا، وفيا بعد لعب هذا العالم دورًا هامًا في تدريس الرياضيات في مدرسة الملاحة والأكاديمية البحرية في روسيا، وزار القيصر ذات مرة ورشة الساعاتي الشهير كارتيه، وأولع بعمله لدرجة جعلته ينشغل في تركيب وتفكيك الساعات.

كانت البعثة الكبرى قد انفقت كل نقودها وهي في هولندة، فإن نفقات المعيشة، والتعاقد مع الاخصائيين، وإرسالهم إلى روسيا، وشراء الكثير من الأدوات والمواد الضرورية قد ابتلعت أموال البعثة بسرعة، وتكبلت بالديون، وخرج من الورطة بصفقة التبغ، فاللورد المرح الماجن كارمارتن الذي أعجب به القيصر الرُوسي أشد الإعجاب كان رجلًا عمليًا للغاية، فبناء على اقتراحه منحه بطرس حق احتكار تجارة التبغ في

السوق الرُوسية، وهي المادة التي اعتبرها بطريرك روسيا وغيره من الملتزمين بالأعراف القديمة من «العقاقير الممقوتة من الخالق»، وكان البطريرك أدريان الذي حل محل يواكيم في رئاسة الكنيسة الأرثوذكسية الرُوسية قد أصدر قبيل رحيل بطرس إلى أوربا الغربية لعنة (يخشاها الرُوس أكثر من الإعدام) على التجار وأبنائهم وأحفادهم؛ بسبب المتاجرة بالتبغ، أما مجموعة قوانين ١٦٤٩، فقد نصت على عقوبة بسبب التدخين للمرة الأولى هي تعذيب المذنب وجلده بالسُوط، وللمرة الثانية جدع أنفه، ولم يمض على صدور تلك القوانين سوى خمسين عاما، أما ابن واضع تلك القواعد الصارمة (القيصر الكسي ميخائيلوفيتش والد بطرس)، فقد تغاضى عن المدخنين بل ودخن بنفسه، والأكثر من ذلك أن ملاحقة مستخدمي «العقاقير الممقوتة من الخالق» توقفت، واعتبرت تجارة التبغ احتكارًا للخزينة، وحصل على هذا الحق كذلك التُجار الرُوس الذين عادوا على الخزينة بأرباح غير قليلة، أما الآن، فقد ازدادت الأرباح ثلاث مرات دفعة واحدة بتسليم احتكار التبغ إلى اللورد كارمارتن، زد على ذلك أن القيصر استلم من اللورد سُلفه قدرها ١٢ ألف جنيه، وسدد ديونه واقتنى مشتريات جديدة.

وكان من اللازم أن تصاغ صفقة التبغ في عقد، وما كان يحق لبطرس نفسه أن يوقع العقد لأنه مجرد «طالب بعثة»، فأرسل نص العقد إلى المبعوثين الكبار في هولندة، ومنعهم منعًا باتًا من فتح الظرف إلا بعد أن يحتسوا ثلاث كؤوس من النبيذ، ونفذ الثلاثة أمر القيصر المعظم بمنتهى الارتياح، ثم فتحوا ظرف الرساله، وقرأوا العقد وفرحوا أشد الفرح، فلا بد من الترحيب بهذه الصفقه الرَابحه الكاسبه كما قال فوزنيتش، وهو رجل يخاف اللّه وقد تربى على التقاليد القديمة، ولذا تناول كل من المبعوثين ثلاث كؤوس أخرى من النبيذ حتى «ألم بهم السُكر أكثر»، كما اعترف المبعوث الثاني غولوفين فيما بعد، كان المبعوثون الثلاثة راضين مسرورين فلم يبدوا أى اعتراض على الوثيقة المقترحه، وتوجه غولوفين من امستردام إلى لندن لتوقيع عقد التبغ.

وفى ١٨نيسان (ابريل) قام بطرس وغولوفين بزيارة وداعية إلى الملك، وأهدى له القيصر الرُوسى ماسة عظيمة في ختام اللقاء والحديث، وفى ختام المكوث في بريطانيا المضيافة، وبعد أسبوع غادر بطرس هذا البلد.

وقد عرضوا على بطرس في الغالب كل ما كان مهتمًا به، فامضى الوقت هنا بنفع كبير له ولروسيا، وكتب أحد معاصريه بهذا الخصوص يقول: «كانَ ميل القيصر الشديد إلى الأمور الجدية يبعده دومًا عن المسرات والتسلية المعروفة، وكان يتحاشاها بشطارة رغم كل جهود حسناوات البلاط اللواتي حاولن إثارة إعجابه، وكنَّ على استعداد لمنح الحب كله للقيصر العظيم، الذي وصل من بلد بعيد ـ وبالمناسبة ـ يقال إن إحدى الحسناوات استطاعت أن تبلغ هدفها».

كان شغف القيصر بالممثلة ليتيتسيا كروس قصيرًا جدًا، وقد فارقها ومنحها ٥٠٠ جنيه، سلَّمها المبلغ مينشيكوف بتكليف من القيصر، وأبلغ مينشيكوف القيصر بأن المعشوقة لم تكن راضية على هذه الهبة، فاعترض بطرس قائلًا:

ـ تتصور يا مينشيكوف أني مبذر مثلك؟ مقابل خمس مئة جنيه يخدمني شيوخ أذكى وأفضل، أما هذه فقد خدمتني أسوأ منهم.

ـ الأجرة على قدر العمل. (وافقه مينشيكوف).

وفي معرض تقييم زيارة بطرس الأكبر إلى بريطانيا، قال ماكولي المؤرخ الإنجليزي المعروف في القرن التَّاسع عشر: «إن رحلته حقبة كاملة ليس في تاريخ بلاده فقط، بل وفي تاريخنا وتاريخ البشرية جمعاء»، ويخص هذا القول الجانب الإيجابي النَّافع الذي عرفه ودرسه بطرس في بريطانيا، وكذلك الجوانب السلبية التي رافقت مكوثه في الجزر البريطانية الغائمة، فلم يكن جو رحلته تلك صافيًا دومًا، كتب السَّفير النمساوي في لندن أويرسبيرع إلى الإمبراطور ليوبولد الأول بخصوص زيارة بطرس الوداعية إلى الملك: «ا نحنى القيصر الملك ولهلم، وعبر له برقة عن صداقته الدائمة، إلا أنه عرف بأن سكرتير اللورد باجيت (السفير

البريطاني في الأستانة- ملاحظة المؤلف) وصل حاملًا بعض اقتراحات الصُلح، فعبر عن استيائه لأن الملك لم يخبره بذلك، ويرى القيصر أن أوان الصُلحلم يحن بعد، وسيعارض توقيعه في الأغلب عندما يصل إلى بلاط جلالتكم».

والمقصود هنا هو الحلف المقدس بين النمسا وبولونيا والبندقية وروسيا ضد الباب العالي والقرم، والذي تهدده الخطر، كما علم بطرس ومبعوثوه الكبار على حين غرة، فمن وراء ظهر روسيا أجرت النمسا بتأييد من بريطانيا والبلدين الآخرين مفاوضات مع الباب العالي بشأن الصُلح، ولم يخبروا بطرس بذلك إطلاقًا، وهو مشغول بسفنه ومونوفاتوراته، وكان واضحًا أن مكانة روسيا في المسرح الدبلوماسي الأوربي ليست رفيعة...

وكان يتعين على بطرس أن يتعلم كثيرًا في هذا الميدان أيضًا، عليه أن يتعلم النفعية وأسرار الأحابيل الدبلوماسية، والحساب الدقيق، وقد عرف غدر وكذب ورياء الدبلوماسيين المحنكين، وارتسم في أوربا توزيع جديد للقوى، وكانت حرب جديدة تقترب، هي الحرب لاقتسام التركة الأسبانية، وانتهت الحرب بين فرنسا ورابطة أوغسبورغ التي ضمت بريطانيا، وهولندة، وأسبانيا، والإمبراطورية الرومانية المقدسة، والسويد، وسافوى، والإمارات الإيطالية والألمانية الصغيرة، وسجلت معاهدة صلح ريسويك تنازل فرنسا عن جزء من الأراضي التي احتلتها في أسبانيا وألمانيا وجنوب هولندة، إلا أن قرب وفاة الملك الأسباني كارل الثَّاني الذي لم ينجب أطفالًا قد قرَّب الصَّراع من أجل اقتسام ممتلكاته الشَّاسعة جدًا، وهي أضخم الممتلكات في عالم ذلك الزمان، فبالإضافة إلى أسبانيا ضمت دولته قسمًا كبيرًا من إيطاليا، وجنوب هولندة ومساحات شاسعة في أميركا الجنوبية والوسطى ،وقسمًا من أميركا الشمالية، وفي أفريقيا وفي البحار والمحيطات (الفليبين، جزر الكناري، جزر الأنتيل، جزر كارولين).

ولم تكن فرنسا والنمسا تستنكف من قبول هذه التركة الغنية، كان لويس الرَّابع عشر متزوجًا من ماري- تيريزا، أخت كارل الثاني الكبرى، أما إمبراطور النمسا ليوبولد الأول فهو متزوج من أخت كارل

الثَّاني الأخرى مارغريتد تيريزا، ولدى كل منهما أبناء ادعوا بعرش خالهم الأسباني، وكانت في بلاط كارل الثَّاني عُصبتان إحداهما موالية لفرنسا، والأخرى للنمسا، واقترن الصراع بين الهبزبورغ والبوربون من أجل عرش أسبانيا بمناوشات، من أجل مستعمرات الدولتين البحريتين بريطانيا وهولندة، ولما كان الصراع الدبلوماسي المعقد دائرًا أدرك بطرس وأعوانه أثناء وجودهم في هولندة وبريطانيا مغزى الأحداث الجارية أمام أنظارهم، وفي رسالة إلى أ. فينيوس في ٢٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٦٩٧، قيم القيصر بدقة كبيرة المعاهدة التي وقعت توا في ريسويك، وما كان سيعقبها: «تم توقيع الصُلحمع الفرنسيين، وجرى الاحتفال به في لاهاي قبل ثلاثة أيام بألعاب نارية، الحمقى فرحون جدًا، والأذكياء يتوجسون خيفة من أن الفرنسيين خدعوهم، ويتوقعون حربًا جديدة في القريب العاجل، وسأكتب عن ذلك بمزيد من التفصيل».

كان بطرس في ذلك الموقف مهتمًا بالقضية الرئيسية بالنسبة لروسيا آنذاك، وهي مواصلة الحرب ضد الأستانة والانتصار فيها، وقبل بداية البعثة الكبرى بقليل، في كانون الثاني (يناير) ١٦٩٧، أكدت روسيا والنمسا والبندقية شروط تحالفها، إلا أن كل ذلك مهدد بالخطر الآن، فالبلدان الأوربية، بما فيها النمسا والبندقية حليفتا روسيا، وكذلك حكام بريطانيا وهولندة الذين استقبلوا بطرس بحفاوة وترحاب، مارسوا من خلف ظهره لعبة دبلوماسية نشيطة موجهة في الواقع ضد روسيا، فقد أرادوا أن يتركوها تواجه لوحدها الأستانة لتشاغل قواتها الحربية، حتى يستطيع جيش النمسا أن ينتقل بالكامل لمقاتلة فرنسا من أجل الاستئثار بالتركة الأسبانية، وهذا هو سبب «الوساطة السلمية» لبريطانيا وهولندة من أجل وقف الحرب بين النمسا والعثمانيين، ولم تسفر مقاومة فرنسا في الأستانة عن نتيجة.

لقد عرفت البعثة الكبرى بالاحبولة التي خصص لروسيا فيها دور البيدق لا أكثر في كانون الأول (ديسمبر) ١٦٩٧، في امستردام، فإن مخبرًا سريًا من فينا فضح نية السُلطان العثماني في إرسال مبعوثين لمفاوضات

الصُلحمع الإمبراطور، وأخذ بطرس يتابع تطور الأحداث، وفهم بأن اتجاه تلك الأحداث يحكم بالفشل مسبقًا على محاولاته لعرقلتها، والتأثير عليها، ولذا ظل يدرس نظرية بناء السُفن، وغير ذلك من الأمور الضرورية، ففيما بعد ستنفعه هذه المعارف وتنفع روسيا لدرجة كبيرة في بلوغ أهدافها، بما في ذلك أهداف السياسة الخارجية.

وفي ٢٥ أبريل (نيسان) غادر بريطانيا، كان البحر مضطربًا، والسُفن تتقاذفها الأمواج، وكانت تنتظره في هولندة أمور هامة ونافعة كثيرة، فقد تفقد القيصر مع ليفورت قصر آل اوران، وجامعة ليدن، ومختبر التشريح فيها، وعرض ليفينغوك عليه مجهرًا أثار دهشة أوربا كلها، وأشبع بطرس فضوله وتوقه إلى المعرفة، لكن أخبارًا غير سارة أزعجته كثيرًا.

فقد بلغه من روسيا نبأ انتفاضة أفراد القوات الخاصة، خصومه القدامى كما كان يتصور، كانت أفواج القوات الخاصة في موسكو قد شاركت في كلتا حملتي آزوف، وساهمت في الهجوم وحفر أسوار المدينة ـ القلعة ودخولها، ولعبت في جميع العمليات الحربية دورًا كبيرًا وتكبدت خسائر جسيمة، وبعد دخول آزوف ظل قسم من الأفواج هناك في خدمة الحامية، وكان أفرادها يحلمون بالعودة إلى الدِيار، إلى عوائلهم وتجارتهم وصنائعهم التي كانت تساعد في إطعام زوجاتهم وأطفالهم، فالرواتب قليلة، وفي خريف ١٦٩٧، وصل أمر بترك آزوف، ولكن ليس إلى موسكو، بل إلى الحدود اللتوانية، فقد أدرجت القوات الخاصة ضمن جيش رومودانوفسكي الذي تحرك صوب حدود بولونيا بسبب انتخاب الملك الجديد.

وفي الطريق، في أوحال الطرق والبرد الشديد، عانت تلك القوات من بؤس فظيع، فقد كان أفرادها يموتون جوعا، ويسحبون المدافع بأنفسهم (فقد نفقت الخيول لانعدام العلف)، وبلغ بهم الأمر إلى حد الاستجداء، وتوسل الصدقة في قرى وضواحي فيليكة لوكي، وقد تأخرت رواتبهم فلم يستلموها في الوقت اللازم.

وفي ربيع العام التَّالي جاء إلى العامة عنوة ١٧٥ شخصًا، يمثلون أفواج القوات الخاصة، قدموا الشكاوى، وطالبوا بإنقاذهم من الموت جوعًا، وأرادوا أن يلتقوا بعوائلهم، وبدأ غليان في موسكو، فالمتذمرون بين أهاليها كثيرون، وبعد عدة مناوشات اتخذت السُلطات الإجراءات اللازمة بسرعة، حيث دفعت رواتب أفراد القوات الخاصة، وإخراجهم من المدينة، فعادوا إلى أفواجهم، وهدأت الأمور حسب الظاهر، إلا أن إشاعات انتشرت في العاصمة وفي البلاد، وزعمت بأن القيصر بطرس قُتل في الخارج ولا تصل أية أخبار عنه...

وكان التفسير بسيطًا للغاية، فالبريد من امستردام إلى موسكو يستغرق أمدًا طويلًا، أكثر من شهر ونصف، وبعث رومودانوفسكي تقريرًا إلى بطرس عن قلاقل القوات الخاصة في ٨ نيسان (أبريل)، واستلم القيصر التقرير في ٢٥ آيار (مايو)، وكان تأخر وصول أخبار القيصر يثير البلبلة والحيرة، حتى عند الذين تركهم بطرس في العاصمة لتصريف شؤون الدولة، واستاء القيصر أشد الاستياء من سير الأمور على هذا النحو، فكتب إلى الأمير رومودانفسكي يلومه في الحال:

ـ كفاكم تفكيرًا بأننا هلكنا (لتأخر وصول البريد)، فأنتم بسبب خوفكم لا تباشرون العمل... ولا أدري؛ من أين جاءكم هذا الخوف الذي يلازم النساء.

لقد لام بطرس دون تردد معاونيه الموسكوبيين، واتهمهم بالارتباك والجبن، وفي رسالة أخرى بعثها إلى فينيوس، وهو رجل محنك كما يتصور بطرس، ومُطّلع على العادات الأجنبية وعلى أمور البريد (فهو مدير دائرة البريد، إضافة إلى دوائر أخرى) قال القيصر مؤنبًا:

ـ كنت آمل بأنك ستقنع الآخرين بالعدول عن رأيهم انطلاقا من معرفتك بالأمور، بينما تقودهم أنت إلى الهلاك، سنرحل غدا من هنا إلى فينا.

وبعد أن بت القيصر، بأوامر تحريرية فقط، في قضية مؤذية هي «عصيان القوات الخاصة» انتقل إلى قضية أخرى لعلها أكثر إيلامًا من

الأولى، ونعني تقوض التحالف المناهض لتركيا، ففي ١٥ آيار (مايو)، في المقابلة الوداعية مع الممثلين الرسميين الهولنديين، بعد تبادل المجالات، لم يتمالك بطرس نفسه، كما في لندن، فقال إن الهولنديين الذين هنأوه بالانتصارات في الحرب ضد العثمانيين يجهدون لشق تحالف الدول الذي يضم روسيا أيضًا، وأجابوه بأنهم لا يعرفون شيئًا عن ذلك، وكان واضحًا أن هذا الجواب حيلة لا أكثر، وفي اليوم التالي توجهت البعثة عائدة، ترك بطرس رفاقه يمخرون القنوات والأنهار، وتقدم بسرعة في البر، وسرعان ما وصل إلى درزدن، إلى أغسطس الأول حاكم سكسونيا الذي صار ملكًا لبولونيا بمساعدة بطرس، وبدأت الاحتفالات والمراسيم من جديد، وتفقد الضيف القلاع وترسانات الأسلحة ومجموعات التحف الغنية في درزدن، واهتم خصوصًا بأدوات العلوم الرياضية، وتجهيزات الحرف، ودار الصهرن وادهش القيصر الخبراء من جديد بمعارفه في ميدان المدفعية.

وأسرع بطرس في طريقه إلى فينا مستخدمًا جياد البريد، أمضى القيصر النهار والليل في الطريق، وكان حماسه ونفاد صبره أمرًا مفهومًا، فإن مفاوضات الصُلحجارية بين فينا والأستانة، وهو يفهم طبعا أنه لا أمل في تصحيح الأوضاع، وتغيير الموقف، فهو عصيب للغاية، ولا أمل فيه بالنسبة لروسيا والقيصر، إلا أن طبيعة بطرس تنطوي على واحدة من الخصائص الرئيسية، ألا وهي عدم الانسياق وراء اليأس والقنوط، حتى في الحالات التي لا مخرج منها، وحتى بعد الهزائم الماحقة، ولذا بدأ يعمل بشكل عنيد محموم، وبنفاد صبر.

وفي ١١ حزيران (يونيو) اقترب من فينا، وجرى أول لقاء مع ممثلي النمسا في شتوكيراو، وهي بلدة بضواحي فينا، ولم يتمالك بطرس نفسه بسبب المماطلة، والرسميات، وصغائر المراسيم الدبلوماسية، والأكثر من ذلك بسبب الاستهانة بالمبعوثين الرُوس، فطلب لقاء شخصيًا مع الإمبراطور، ومن جديد جرت مباحثات مملة بشأن مراسيم اللقاء، والترتيبات الدبلوماسية، وفي ١٩ حزيران (يونيو) تقابل ليوبولد الأول، حاكم الإمبراطورية المترامية الأطراف البالغ الثَّامنة والخمسين، وهو رجل محنك حذر متباه متمهل مع

القيصر الروسي النشيط المتحمس، البالغ السادسة والعشرين من العمر، بطرس يرتدي قفطانًا هولنديًا قاتمًا، وربطة عنق مستهلكة، وبدأ الإمبراطور ومستشاره الدوق كينسكي الذي يشبه سيده في كل شيء حديثهما مع بطرس بتخوف وحذر.

ورغم مخاوف الإمبراطور أبدى بطرس احترامًا وتأدبًا في الحديث مع «أعظم حاكم للعالم المسيحي» (هكذا نعت القيصر محدثه)، وبعد الحديث تنفس ليوبولد الأول الصعداء، فقد سمع الكثير عن غرابة أطوار بطرس، وتصرفاته غير المعتادة، أما بطرس، فقد كلفته رباطة الجأش والهدوء غاليًا، وبعد المقابلة التي استغرقت ربع ساعة، ودَّع بطرس الإمبراطور، وخرج إلى المنتزه، ورأى زورقًا في البركة فقفز إليه في الحال، والتقط المجدافين وأخذ يجذف نترا وبسرعة، وهدأت أعصابه بعد عدة دورات في الماء، فقد وجد أخيرًا منفذًا للطاقة التي قيدها طويلًا حتى طفحت كأسها.

ولم يبق مسلك القيصر المتأدب أثناء الاستقبالات الرسمية دون أن يلاحظه أحد، فقد أفاد مبعوث أسبانيا في بلاط فينا أن بطرس «لم يبد هنا أبدًا مثلما يصفونه في البلاطات الأخرى، بل هو أكثر تمدنًا وتفعلًا وتأدبًا وتواضعًا».

استمرت المفاوضات بين الحلفاء والأستانة، علمًا بأنهم أبعدوا روسيا عنها بوقاحة، واستهانوا بمصالحها، وحاول بطرس أن يؤثر على سيرها، ويطرح على بلاط فينا مسألة الإلتزام بمعاهدة التحالف، وانطلق في ذلك من مبادئ العدالة والعقل والحق الأخلاقي، ولم يراع بطرس بالقدر الكافي في خطواته الدبلوماسية النزعة النفعية في الدبلوماسية الأوربية...

وطرح بطرس في التذكرة التي بعثها إلى المستشار كينسكي ثلاثة أسئلة:

- ما الذي ينوي الإمبراطور أن يفعله: هل سيواصل الحرب ضد العثمانيين أم يقدم على الصُلح؟
- إذا وقع الصُلحفما هي شروطه بالنسبة للإمبراطور؟

- ما هي الشروط التي يطرحها السُلطان العثماني على الإمبراطور والحلفاء؟

وفي ٢٤ حزيران (يونيو)، في اليوم التالي بعد استلام تذكرة بطرس، سلَّمه كينسكي جوابًا خطيًا جاء فيه أن الإمبراطور يفضل «السلام المشرف الوطيد»، وأن الطرفين يحتفظان بالأراضي التي تحتلها قواتهما حتى اليوم، ومع الجواب نسخة من رسالة الصَدر الأعظم العثماني والرد على الأستانة بتوقيع كينسكي ورود زيني سفير البندقية في فينا (تاريخ الرد مزور، وكأنما أرسل قبل وصول البعثة الروسية الكبرى).

لقد فهم بطرس كل تلك الأحاييل، وتحدث مع كينسكي، وطالبه بمواصلة الحرب ضد الباب العالي حتى نهاية مدة التحالف (ثلاثة أعوام، أي حتى عام ١٧٠١)، لكي تتمكن روسيا من تأمين سلامتها بشكل أفضل دون الهجمات العثمانية، وهجمات عساكر القرم، ولذا فهي بحاجة إلى قلعة كيرتش في المضيق الواقع بين بحر آزوف والبحر الأسود، وردًا على ذلك أعلن الحليف عن نيته الثابتة في توقيع الصُلح، أما كيرتش «فمن الأسهل اقناع» الأستانة بالتنازل عنها لروسيا «عندما تحتلها القوات الروسية»، وبعد الانتصارات الرائعة التي حققها الأمير أوجين القائد النمساوي، وحاكم سافوي على العثمانيين، صار بوسع بلاط فينا أن يسمح لنفسه بمثل هذه النصيحة التي هي تحرش لا أكثر، أما بطرس فقد احتاج إلى عشر سنوات أخرى ليشعر بالثقة اللازمة.

وانتهت خطوات بطرس الدبلوماسية بالفشل عمومًا، لكنه فهم أمورًا كثيرة، فإن الاتصالات مع البلاطات الأوربية وقادتها المحنكين ومع الدبلوماسيين المتفننين قد أسهمت بقسط كبير في تعليم بطرس وأشياعه.

وظلت هناك البندقية حليفة روسيا الأخرى، وهي أيضا حليفة غير آمنة تماما، ومع ذلك... فلربما يتمكن بطرس من القيام بشيء هناك، أو تغيير شيء، أو على أية حال قد يتمكن من القيام بمحاولة، زد على ذلك أن بناء

السُفن متطور في هذه الجمهورية، وتوجد فيها ترسانات للسلاح وأسطول مجذافي كبير، ويمكن الاطلاع على ذلك، والاستفادة منه، ومن هناك يمكن الرَحيل إلى روما وإلى فرنسا...

...وفي الخامس عشر من تموز (يوليو) استعد بطرس لركوب العربة كي يسافر إلى البندقية، إلا أن رسالة جديدة وصلته من الأمير الحاكم رومودانوفسكي في موسكو، وشوشت عليه خططه، فقد كتب الأمير عن عصيان أربعة أفواج من القوات الخاصة في موسكو، في الربيع جاء إلى موسكو ١٧٥ من «مشعل الفتن»، أما الآن، في الصيف فإن أربعة أفواج كاملة توجهت إليها «متمردة» ودارت في رأس بطرس كالعاصفة ذكريات أحداث ١٦٨٢و ١٦٨٩، فثارت ثائرته وانفعل أشد الانفعال، ولم يعد يطيق المماطلات الدبلوماسية ومجادلات دبلوماسيي فينا وموسكو بشأن تفاصيل مراسيم المقابلة الوداعية التي كادت تخفق، وجرى بعدها تبادل الزيارات بين الإمبراطور وبطرس، وفي ١٩ تموز (يوليو) استقبل القيصر ولي العهد النمساوي، وبعد ظهر ذلك اليوم استقل مع حاشيته خمس عربات أسرعت بهم إلى روسيا، وليس إلى البندقية، فأثار بذلك دهشة فينا كلها.

العربات تنهب الدرب ليل نهار في أراضي بولونيا صوب الحدود الرُوسية،وبعد كراكوف لحق بالقيصر رسول جاء من فينا، وأخبره بدحر القوات الخاصة المتمردة عند نهر ايسترا غربي موسكو، جنب دير فوسكريسنسكي (القيامة) في نوفواورشليم (أورشليم الجديدة)، وخفف بطرس من سرعته، وسار موكبه دون استعجال، وفي رافا روسكايا تقابل بطرس مع أغسطس حاكم سكسونيا وملك بولونيا، ومكث هنا فترة طويلة، كان الحاكمان يشبهان بعضهما البعض، فهما شابان ضخمان بقامة فارعة، وطاقات نشيطة ومبادرات لا تنضب، إلا أن أغسطس يفضل اللهو والمجون، كان يتحلى بالتأدب واللياقة لو أراد، لكنه لا يجيد أصول السلوك الأوربية الرهيفة.

واستهوى بطرس الجو الخالي من التكلف، الذي يستطيع أغسطس أن يهيئه، وعدم التحجر وانعدام المراسيم الخانقة، كانت حفلات اللهو والمجون تتوالى الواحدة في أثر الأخرى، وجرى استعراض القوات، كما أجريت مباحثات تجارية ذات مرة عرض بطرس مهارته في قرع الطبول «فقرع عليها مختلف الأنغام التي لا يضاهيه في قرعها أحد» (إفادة شاهد عيان).

وفي الأحاديث الانفرادية بين الحاكمين اللذين ربطتهما عرى الصداقة صاغا تحالفا ضد السويد، واقسما على صيانته، إلا أن تلك الصياغة جاءت شفوية فقط، ولما كان التحالف الجنوبي ضد الإمبراطورية العثمانية قد تقوض، فقد حول بطرس أنظاره إلى الشمال إلى البلطيق، وظهرت بواكير حلف الشمال المرتقب، وعزز الحاكمان هذا الاتفاق بأسلوب فريد، حيث تبادل الملك والقيصر قميصيهما ،وقبعتيهما، وسيفيهما، وافترقا راضيين على بعضهما البعض.

وعاد بطرس إلى موسكو في ٢٥ أب (أغسطس)، وكانت تنتظره أعمال لا تقبل التأجيل، فمن فينا أرسل إلى الأمير رومودانوفسكي رسالة موجزة غاضبة: «السيد الأمير، استلمت رسالتك التي حررتها في ١٧ حزيران (يونيو)، والتي تقول فيها سماحتك إن بذور إيفان ميلوسلافسكي تنمو، وأرجوكم أن تكونوا أقوياء، فلا شيء عدا القوة يصلح لإطفاء هذا اللهيب، ومع أننا آسفون أشد الأسف على ترك القضية النَّافعة الحالية، لكننا لهذا السبب سنعود إليكم بأسرع مما تتوقعون»، هذه الرسالة تجسيد لنفسية بطرس الجاد المنفعل الذي يستطيع أن يصب جام غضبه على الذين يتصورهم مذنبين، وها هو يستعد لإنزال عقاب دموي لا يُرحم بأفراد القوات الخاصة الذين تمردوا، والقيصر واثق من ذلك، بتأليب من آل ميلوسلافسكي الذين يحقد عليهم أشد الحقد، ومن أخته صوفيا، وهذا واضح من لهجة الرسالة («بذور ميلوسلافسكي تنمو»، أي تتصاعد وتعطي براعم أخرى بشكل مؤامرات وفتن ضده).